ظـــاهرة الاستلزام التخطابي في البلاغة العربية
–دراسة تأصيلية في جهود قدامة بن جعفر والرماني–

الأستاذة: نوال جوابلية
أستاذ محاضر صنف – ب– جامعة خميس مليانة
djouablia_naw @ yahoo.fr

ملخص المقال:

يهدف المقال إلى البحث عن تجليات ظاهرة الاستلزام التخاطبي في البلاغة العربية، منطلقين من فكرة أن البلاغة العربية ليست مجرد تنميق لفظي اهتم بالشكل وأهمل المعاني و المقاصد، وهو الطرح الذي آمن به معظم البلاغيين، الذين دافعوا عبر مؤلفاتهم عن الشق التفاعلي للغة، والذي هو حوصلة علاقة تخاطبية بين المتكلم والسامع، فالأول يبني خطابه على صور شتى، وبأساليب تتراوح بين ما هو مباشر وغير مباشر، بينما يسعى الطرف الثاني إلى تأويل هذا الخطاب وفك شيفرته، خاصة إذا تعلق الأمر بتضمينات قولية لا تقرأ من المرة الأولى، وهو ما يدفع المتلقي إلى البحث عن هذه المعاني الخفية انطلاقاً من معطيات سياقية اعتمدها المتكلم عند إنتاج خطابه، ويعول عليها السامع عند تأويله لهذا الخطاب، وهو ما يمكن أن نستشفه في جهود بعض بلاغيين ومن ذلك قدامة بن جعفر الذي حفل كثيراً بالكناية، والرماني الذي جعل المجاز أبين من الحقيقة، خاصة إذا تعلق الأمر ببيان إعجاز القرآن الكريم.

Résumé de l'article:

L'article vise à rechercher des manifestations phénomène conversational implicature dans la rhétorique arabe, en partant de l'idée que la rhétorique arabe est non seulement mâche intérêt verbal sous la forme et négligé significations et objectifs, qui offre la sécurité de son plus la rhétorique arabe, qui a défendu à travers leurs compositions de l'encoche langue interactive, qui est gésier la relation entre l'orateur et l'auditeur, l'ancien construit son discours sur les différentes images, et d'une manière allant de ce qui est directement et une autre indirectement, tandis que la seconde partie cherche à interpréter ce décodage de la parole, surtout si elle vient Ptdminac anecdotique ne lisent pas la première fois, ce qui est ce qui motive le récepteur Pour rechercher ces significations Caché de données contextuelles adoptées par le

haut-parleur lors de la production de son discours, et l'auditeur fiable quand interprété cette lettre, qui pourrait dans les efforts de Qudama bin Jehfr et Rummani qui ont fait la métaphore du Abyan de la vérité, surtout en ce qui concerne Une déclaration du miracle du Saint Coran .

مقدمة:

تعتبر التداولية من أهم النظريات الحديثة التي لفتت انتباه الدارسين للغة، بوصفها وثبة معرفية كبير في حقل الدراسات اللسانية، فبعد أن كان الكثير من اللسانين يهتمون بالبنى اللغوية من حيث تركيبها ودلالاتها، منطلقين من فكرة النظر إلى اللغة على أنها نسيج مغلق، يجب عزله عن محيطه، وكل الظروف والملابسات التي ولد بين أحضانها، حتى جاءت التداولية وقلبت هذه المعايير، حينما أصرت على أن فهم اللغة لا يمكن أن يتحقق إلاّ إذا فهم هذا العالم الذي هو جزء لا يتجزأ منها.

فانطلقت التداولية من دراسة الكلام بوصفه إنجازاً لعمل ما يقع عند الاستعمال،جاعلة النص(الخطاب) حاملاً لمجموعة وظائف، تتجاوز الوظيفة الأولى وهي الأخبار و الإفهام، إلى وظائف تداولية كثيرة لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً إلاّ إذا وضعت في سياقها، فكان لزاماً عليها أن تهتم بالمتكلم والمتلقي، وكيفية فهم هذا الأخير لما يريده المتكلم بالضبط ،لا ما تعنيه العبارة فقط، فكانت أن جعلت هذه الأقوال أنماطاً تواصلية تتحقق بالاستعمال ذات نتائج فعلية تقع على المتلقي مهما كان وضعه، حاضراً حضوراً عينياً، أو مستحضراً ذهنياً.

1.التداولية المصطلح والمفهوم:

إن المتتبع للمسار المفهوماتي لهذا المبحث اللساني(التداولية) يمكن له أن يقف على جملة من الحدود التي لا يخرج معظمها عن مبدأ الإنجاز أو الفعل، إذ عرف مصطلح البراغماتية أو التداولية[1] مدلولات عديدة، فقد أخذ مصطلح "pragmatique" من الأصل اليوناني pragma الذي يعني العمل action ومنه اشتقت الصفة pragmatikos التي« تحيل على كل ما يتعلق بمعاني العمل action »[2].

وقد استعمل المصطلح لأول مرة خلال القرون الوسطى في فرنسا في مجال الدراسات القانونية، وابتداءً من القرن السابع عشر الميلادي لينتقل المصطلح إلى الميدان العلمي فصارت لفظة "pragmatique" تعني « كل بحث أو إكتشاف من شأنه أن يعرّف أو يفضي إلى تطبيقات ذات ثمار علمية»[3]، وهو المفهوم الذي لزم التداولية وهي تستوطن الحقل اللساني، لتتخذ تعريف كثيرة بالنظر إلى توجه الباحثين في هذا المجال، إذ عرّفت من منظور من اهتم بدراسة المعنى في السياق التواصلي بأنها« دراسة المعنى التواصلي،أو معنى المرسل في قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله»[4] ، في حين تعرف التداولية من جهة المرسل إليه بأنها« كيفية إدراك المعايير والمبادئ في توجهه عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السياق،بما يكفل له ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده وتحقيق هدفه»[5].

الأمر الذي يعكس ثراء هذا المدرسة اللسانية وتداخل العديد من الحقول المعرفية في مباحثها، فهو علم غزير استطاع أن يجيب على أسئلة تطرح نفسها ولم تجب عنها المناهج اللسانية الأخرى[6]،على غرار« ماذا نصنع عندما نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا بينما في مقدوره أن يفعل؟ فمن يتكلم إذن وإلى من يتكلم؟... ماذا عينا أن نعمل حتى يرتفع الإبهام عن الجملة؟... كيف يمكننا قول شيء أخر غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟»[7].

لذلك فقد تعددت تطبيقات هذه النظرية كما تعدد مباحثها، إذ حاول الباحثون الإستفادة منها في تعليم اللغة الأم، واللغات الأجنبية، بل حتى في الدراسات المقارنة بين اللغات التي تنتمي إلى ثقافات متباينة، وفي بحث آليات إنتاج الخطاب من خلال البحث عن أفضل طريقة يمكن للمرسل أن يتبعها حتى ينتج خطاباً ناجحاً، يؤثر من خلاله في المرسل إليه، في الوقت الذي يبحث فيه

المرسل إليه عن أفضل وسيلة للوصول إلى مقاصد المرسل كما يريدها عند إنتاج خطابه لحظة التلفظ.

وهو ما يجعل هذه النظرية في صميمها نظرية تعنى بدراسة الفواعل التي تتحكم في اختيار اللغة أثناء التواصل، وتأثير هذا الاختيار على الآخرين، وعليه فاللغة من منظورها كفاءة تواصلية بامتياز، لا تكتفي باللغة كقاعدة ونظام بل كاستعمالات مخصوصة لهذا النظام، تهدف إلى تحقيق مقاصد وأهداف،لا يقتصر دورها على وظيفة وصف الواقع ، أو نقل خبر، أو إفهام من هو في في حاجة إلى ذلك، بل تتعدها إلى إنجاز أفعال اعتماداً على ما يتلفظ به المتكلم، لذلك فإن الاستعمال المخصوص للغة هو الذي يخرجها من حالة السكون إلى نوع من الحركية، التي لا تتبلور عبر قواعد تجريدية كما هو الحال في النحو ، بل عبر كفاءة تلم بكل عناصر السياق، وهو ما يجعل المعنى محصلة جملة من العناصر السياقية التي تتقاطع فيها آثار عدة يجلبها الخطاب، بغية إحداث تغيير في سلوك المخاطب بطريقة أو بأخرى، وعليه فإن عملية تشكيل الخطاب لا تخلو من المجازفة، فبنية الخطاب لا تعد مرتكزاً وحيداً في فهمه وتأويله ما لم يفهم سياقه، وهذا وما يؤكد أهمية هذا العنصر (السياق) فهو « أداة إجرائية فعالة لا يمكن الاستغناء عنه، إذ يلعب درواً أساسياً في تحديد المعنى وفهم الملفوظات، خاصة إذا أخذناه بمفهومه الواسع حيث يستدعي ما هو اجتماعي وتاريخي وثقافي ونفسي»[8].

2. الاستلزام التخاطبي في البلاغة العربية:

إن المرسل في تعبيره عن مقاصده إنما يلجأ إلى شكلين متباينين من التعبير، فهو من موقعه ذلك يستطيع أن يعبر عنها وفق الدلالة المباشرة للقول بما يتطابق مع معنى الخطاب ظاهرياً، أو يعدل إلى مسلك التلميح بالقصد عبر سياق يخدم ذلك القصد، هذه الإمكانيات تفضي بنا إلى نتيجتين مهمتين، الأولى وهي مركزية السياق في منح الخطاب دلالته من جهة، والثانية

وهي كفاءة المرسل التداولية وقدرته على المناورة بخطابه وفق الاستراتيجية اللغوية التي يريدها تصريحاً أو تلميحاً.

وهو ما أقرته البلاغة العربية عندما أكدت أن الكلام لا يكون إلاّ على ضربين الأول وهو الحقيقة وهي « الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص، فلفظ الأسد موضوع له بالتحقيق ولا تأويل فيه»[9]، والضرب الثاني و هو المعنى، وهو حصيلة خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أو عن أصل المعنى الحرفي الذي يطابق نسبته الكلام فيه مقصود المتكلم، وهو ضرب «لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم لتجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»[10]، ولا يتأتى ذلك إلاّ بمعونة القرائن وإدراك مقتضى الحال.

بينما نجد التصريح في عرف الأصوليين تحت مصطلح آخر وهو مقتضى الظاهر أو دلالة المنطوق وهو « ما دلّ عليه اللفظ في محل النطق»[11]، حيث يكون اللفظ مطابقاً للواقع فلا يحتاج المتلقي إلى التأويل، بل يكتفي بمعنى العبارة الظاهر، وهو ما أطلق عليه الأصوليون مصطلح النص، وهو« ما لا يحتمل التأويل»[12] ، في مقابل الظاهر وهو « ما يسبق إلى الفهم عن إطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً»[13] أي أنه قابل للتأويل.

وعليه فإن الخطاب وفق هذين الشكلين اللغويين(التصريح والتلميح) يمتلك قوتان، قوة انجازية حرفية، قوة انجازية مستلزمة، الأولى معبر عنها بطريقة مباشرة وبصيغة العبارة، في حين أن القوة الثانية تتولد عن الأولى طبقاً لمقتضيات سياقية معينة ، ونزولاً عند مصوغات خطابية معينة، إذ لا يمكن التوصل إليها إلاّ عبر«عمليات ذهنية استدلالية تتفاوت من حيث الطول والتعقيد، في حين أن القوة الحرفية تؤخذ مباشرة من صيغة العبارة ذاتها»[14] .

ولما كانت التداولية في صميمها تعنى بالعناصر السياقية المختلفة المرتبطة بعمليتي إنتاج الخطاب وتلقيه، مهما تفاوتت حيثيات تشكيله وملابسات تلقيه، خاصة إذا تعلق الأمر باللغة

الضمنية ذات القدرة الكبيرة على الإيحاء والإيجاز، والتي ترتكز أساساً على الكم الهائل من المعارف السابقة، والتراكمات الفكرية لفهمها وحل شفرتها، وهو ما أطلقت عليه الدراسات التداولية مصطلح الاستلزام التخاطبي(الاقتضاء التخاطبي)(conversational implicature) الذي وضع أسسه غرايس الذي ركز عمله على صياغة قواعد منطقية قصد معرفة مقاصد المتكلم وأهدافه الكلامية انطلاقاً من الخطابات الضمنية التي أمن بإنجازيتها، وقوتها القولية، ذلك أن«للمضمرات عملاً أكثر ضمنياً وأبرز تداولياً، فالمضمر هو ما نقوله زائداً عن الملفوظ بمجرد قولنا للملفوظ،(كما) تشتغل الأعمال غير مباشرة على المضمرات»[15]، فهي تبلغ معانٍ إضافية تتجاوز ما تدل عليه وضعياً الكلمات، لأن بعضها يرتبط «بالتعبير اللساني وبعضها الآخر تثيره العلاقة بين القول والسياق، فكل قول يثير جزئياً أقوالاً أخرى يضمنها أو يخلقها بوعي أو بدونه داخل نظام دائري، حيث الكل متماسك، إذ يستحيل التواصل بغير ما هو ضمني وخفي، فالتصريح بكل شيء في رسالة بسيطة يتحول إلى دائرة مغلقة ليست لها نهاية، لذلك لا يمكن أن يقال كل شيء»[16].

وعلى هذا فإن ظاهرة الاستلزام التخاطبي وفق الطرح التداولي تعد واحدة من الآليات التي يمكن بموجبها فهم العديد من الخطابات اللغوية دون الحاجة إلى ذلك الكم الكبير من الوحدات اللغوية، وإنما بعملية استدلالية يستطيع المخاطب فك شفرة بعض الخطابات التي تتضمن خطابات أخرى ثاوية تحت معناها الظاهر، اعتماداً على قرائن حالية وأخرى لغوية، وعلى العلاقة بين هذا الملفوظ والسياق الذي قيل فيه، وهو ما يلزم المخاطِب الإقرار بمعنى غير المعنى المصرح به، مما يكسب الخطاب في حد ذاته قوة قولية لا يمكن إنكارها، لأنه لا يقدم الخبر بسيطاً عارياً من أي إثارة فيتلقفه المخاطب بسهولة ودون تنقيب وبحث، بل إنه يستهدفه من جوانب عدة ، كأن يحرك مخيلته، أو يستدرجه بطريقة غير مباشرة للدخول في تفاعل ضمني مع المتكلم وهو ما يجعله طرفاً ناجحاً، لأنه استطاع أن يحسِّن كلامه ويجمله ، فيشد انتباه

المخاطب اعتماداً على مبدأ تكثيف القول الذي« يشكل قوة في المعنى حتى يتسنى للمتكلم من خلال هذه القوة تمرير مواقفه وأطروحاته»[17]، فالكثير من الخطابات المباشرة تكتفي بالإخبار دون فعل أخر «فالقول الذي لا يثير أسئلة لا يقيم علاقة حجاجية بين المتخاطبين »[18]

تجدر الإشارة إلى أن جنوح المرسل إلى اختيار الإستراتيجية الخطابية غير المباشرة هو استجابة لدوافع سياقية معينة، قد تكون ملزمة في بعض الأحيان، كما يمكن أن تكون غير ذلك، شريطة أن يمتلك كفاءة خطابية تتيح له تمثل العناصر السياقية وبلورتها في خطابه .

ولما كانت البلاغة العربية فناً وعلماً فإن العناية بالشق التفاعلي في الخطاب يعد واحداً من مباحثها بل عمودها وسنام أمرها، ذلك أن قيمة الخطاب منوطة بكفاءة المتكلم ومقدرته على المناورة بلغته، حسب حاجاته ورغباته، وعلى هذا «فمراتب الناس في العلم بها والإحاطة بأماكنها وتصاريفها تناسب قوة الدوافع و إلحاح الحاجات تناسباً طردياً»[19]، وعلى هذا تباينت مباحث البلاغة وتعددت علومها، لكن مجملها لم يخرج عن غاية إدراك وفهم المعنى بكيفية أصيلة، أو قل هو البحث المستمر عن قصدية الخطاب، وذلك لوجود تلك العلاقة الوطيدة بين الدال والمدلول وفق ظاهرتي الحضور والغياب،التي يبحث عنها المتلقي ويقيمها.

لذلك فقد عد المجاز بكل أشكاله واحداً من مباحث البلاغة الأولى باعتباره واحدا من الآليات التي تسهم في أدبية القول وجماله، فلم نر عند أهل البلاغة من أنكر منزلته وفضله في الكلام، لأنه يسعى إلى « إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخيل و التصوير، حتى يكاد ينظر إليه عياناً»[20] ، وهو ما حدا بالبلاغيين إلى تقصي هذا الغرض المخبوء خلف ستار اللفظ المزاح عن أصله، خاصة إذا تعلق الأمر بالنص القرآني، الذي انطلق منه البحث اللغوي كلامياً وانتهى بلاغياً محضاً، إن لم نقل تداولياً.

ولأن الخطاب القرآني قد طرح على الصعيد البلاغي جملة من المفارقات، والكثير من القضايا أثْرت مباحث البلاغة بصورة مباشرة، ومن ذلك علاقة الشكل بالمضمون، وآليات الانتقال

من هذا الشكل(الألفاظ) إلى مدلوله وفق معطيات سياقية متنوعة، فالمعنى الناشئ بالكلام يختلف عن معاني الوحدات اللغوية المكونة له« فتصبح العلاقات التي ينشئها المتكلم بين وحدات السياق، هي الدالة لا الكلمات في حد ذاتها، وينم هذا على فهم عميق للتحول الذي يطرأ على الظاهرة اللغوية وقت يصوغها المتكلم»[21].

ولعلّ الفهم الصحيح لهذا التحول الذي يصيب البنية اللغوية لا يتأتى إلاّ بتملك آلية تأويل منطقية في أصلها، تتيح للمخاطب الانتقال من المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي، وهو ما يعرف بالاستلزام التخاطبي في الفكر التداولي والذي نرى أن البحث التراثي خاصة البلاغي منه لم يغفل عنه، بل إننا نجده واضحاً جلياً تحت مصطلح اللزوم للدلالة على تواصلية الاستدلال المنطقي الذي هو محور علم المعاني.

1.2. ظاهرة الاستلزام التخاطبي عند قدامة بن جعفر(ت 377هـ):

يمكن الوقوف على ملامح ظاهرة الاستلزام التخاطبي في فكر قدامة تحت مصطلح الإرداف وهو « أن يريد الشاعر دلالة على المعنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له»[22]، مستدلاً على ذلك بالكناية التي يعدها خير معبِّر عن هذه الظاهرة (الإرداف) ، ويضرب لنا قدامة بن جعفر مثلاً عن ذلك قول أمرئ القيس في قوله :

ويُسخِي فتِيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تَنْتَطِق عن تَفضُّل

فالملاحظ في الشاهد أن الشاعر لم يصرح مباشرة بقصده الخطابي، بل إنه لجأ إلى التضمين الذي تقوم عليه الكناية لبلوغ ذلك، فالمرأة لا تنتطق لتخدم، فهي في بيتها متفضلة مرتاحة البال،إلى درجة أن فتيت المسك يبقى فوق فراشها حتى وقت الضحى، وهي كناية على حياة الترف والبذخ التي تعيشها، فهي مخدومة لا شيء يشغل بالها، وهي نتيجة توصل إليها المتلقي بعد عملية استدلالية، ساقه إليها شعور بالرغبة إلى البحث عن المعنى الخفي المخبوء

وراء المعنى الظاهر، وعليه «تغدو هذه المحاولة التي تنبثق من المخاطب بمثابة عامل فعال في إعطاء القيمة الإبلاغية التأثيرية للكناية»[23].

وهو الأمر الذي يقرب الفكر البلاغي من الطرح الوظيفي القائل بأن اللغة أداة فاعلة لا وسيلة واصفة ، فكثيراً ما يقوم الفعل التأويلي على تحليل القول اللغوي بمعناه الحرفي، ولكنه إلى جانب ذلك توجد حالات أخرى يستغل فيها هذا العمل بكيفية مركبة عندما يتعلق الأمر بتأويل أقوال ولدت ضمنية ثاوية في خطابات أخرى، كما هو الشأن في الكناية، التي تعد عملاً قولياً متحققاً بطريقة غير مباشرة، فهي تجر إلى إنجاز عمل ثان إذا ما سمحت بذلك الشروط التي تحف عملية التلفظ، فالمتكلم في الكثير من الأحيان « يتواصل بشكل أكثر مما يفصح عنه المحتوى الظاهر للملفوظ، وذلك بتوفر خلفية من المعطيات السياقية التي يتقاسمها كل من المتكلم والمخاطب»[24].

مما يجعل من هذه الملفوظات غير المباشرة وسيلة لتحقيق أغراض تخاطبية تتجاوز الإخبار إلى المحاججة، والتلميح كإستراتيجية خطابية تهدف إلى التأثير في المتلقي دون مكاشفة، فالمتكلم في مثل هذه المواضع لا يحتاج إلى التصريح بجميع مكونات الخطاب ليتحقق الإنتقال من المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي، بل يكفيه التصريح ببعضها وهو متيقن من توفر أرضية معرفية مشتركة بينه وبين المخاطَب حتى يتسنى لهذا الأخير فهم لخطاب بطريقة صحيحة، وهو ما دفع قدامة بن جعفر إلى إطلاق مصطلح الإرداف على الكناية، إيماناً أن معاني الخطابات غير المباشرة هي في أصلها صورة لهذا المعنى في تركيبه اللفظي الصريح، شريطة توفر قاعدة معرفية مشتركة بين طرفي الخطاب تضمن الانتقال الصحيح والسلس من المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي، وهو مؤشر جلي على نجاح عملية التواصل الناجح والفعال.

2.2. الاستلزام التخاطبي عند أبي الحسن علي الرماني (ت 384هـ):

يعرف الرماني البلاغة على أنها « إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صوره من اللفظ»[25]، وبنظرة فاحصة متأنية لهذا التعرف تتبدى أن نظرة الرماني للبلاغة لا تخرج عن مستويين اثنين:

-المستوى التبليغي: التواصلي والذي تتحقق فيه مساعي المتكلم في نقل أغراضه ومقاصده الكلامية إلى السامع وهو ما يظهر في قوله: إيصال المعنى إلى القلب.

-المستوى الإستراتيجي: ونقصد به الآليات التي وظفها المتكلم لإيصال هذه المعاني بالصورة الصحيحة التي تعبر بالفعل عن هذه المقاصد، بانتقاء الألفاظ التي تراعي مجريات السياق ، من أوضاع السامع، و أحوال الخطاب ككل، وهو ما يظهر في قوله: في أحسن صورة من اللفظ.

بالإضافة إلى هذا فالملاحظ أن الرماني قد استخدم لفظة القلب بدل العقل للتعبير عن مكامن التأثير في البلاغة، بتوجهها إلى القلب باعتباره المحرك الأساسي لحصول العمليات التأثيرية التي هي في النهاية الصورة الثانية للإقناع الذي يخاطب العقل أولاً والقلب ثانياً، وهو أمر لا يتأتى بالرصف العشوائي للألفاظ ، بل بالانتقاء المحكم والمدروس للكلام الذي قد يخرج في الكثير من المواضع عن الكلام المباشر الذي قد لا يشد حتى انتباه السامع ، إلى أساليب محكمة البناء، مدروسة التركيب، تتخفى تحتها المعاني، و لا تتكشف إلاّ بعد جهد وتأويل، ونقصد بذلك الأساليب البيانية بكل أشكالها.

و لعلّ من الشواهد التي استدل بها الرماني على البعد الإستراتيجي للبلاغة العربية، الاستعارة التي قال بأنها« تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»[26]، أي أن المتكلم يقول شيئاً وهو في الواقع يريد شيئاً مختلفاً عن المعنى الظاهر للقول، وعليه فمن الضروري أن ينقب السامع على هذا المعنى الخفي عن طريق عملية استدلالية عقلية ، وارتكازاً على ملابسات المقام وحيثياته، وهو ما يعرف بالاستلزام التخاطبي في الطرح التداولي، والذي يسعى إلى تحقق المعنى عن طريق هذه الأساليب غير المباشرة بعملية استدلالية .

وينظر الرماني إلى توظيف هذه الأساليب غير مباشرة نظرة تعظيم وتفضيل، انطلاقاً من إدراكه أن هذه الأساليب هي عملية تلفظ تخرج اللغة عن معانيها الأصلية، وتتخلص من السطحية التي عرفها الناس بها ، لتنتقل إلى معاني جديدة لم يألفها الناس، فيكون بذلك تأثيرها أشد ورسالتها أبلغ، فهي تخلق جواً من الدهشة والغرابة، و الكثير من الرغبة للوصول إلى المعنى الحقيقي، وهو ما يدفع السامع إلى إعمال عقله لفك هذه الشفرة ، الأمر الذي يجعل منها مكوناً أساسياً لحصول التأثير في المخاطب بشكل أو بأخر.

لذلك فقد أنزلت النظرية التداولية المجاز بأشكاله منزلة عظيمة ضمن نظرية المساءلة ونظرية الفعل الكلامي، لأنه أسلوب « يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم نظرته، وهو بذلك طريقة للتعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صورة من الإنسان، مثلما تكون الاستعارة صورة من أسلوب التأثير و الإقناع»[27]، نظراً لحالة الدهشة التي يعيشها السامع وهو في رحلة تأويل المعنى، الأمر الذي يجعل هذه الآليات المجازية متضمنة قوى خفية لا تتضمنها التعابير المباشرة، إذ لا يأخذ المخاطب معناه منها إلاّ بعد جهد عقلي جلي، لأن بعضاً من هذه الملفوظات يرتبط « بالتعبير اللساني، وبعضها الأخر تثيره العلاقة بين القول والسياق، فكل قول يثير جزئياً أقوالاً أخرى يضمنها أو يخلقها بوعي أو بدونه داخل نظام دائري، حيث الكل متماسك، إذ يستحيل التواصل بغير ما هو ضمنى وخفي، فالتصريح بكل شيء في رسالة بسيطة يتحول إلى دائرة مغلقة ليس لها نهاية، لذلك لا يمكن أن يقال كل شيء»[28].

وهو الطرح ذاته الذي آمن به الرماني عندما أكد على أهمية هذه الأساليب المجازية، ودورها الفعال في استمالة المتلقي والتأثير فيه ، مستدلاً بمجموعة من الشواهد في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" ومن ذلك الإيجاز التي رأى أنها أبلغ من الذكر، إذ استهل مؤلفه بعرض حد للإيجاز قائلاً«الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى»[29] ، وغرضه من هذا كله بيان فضل إعجاز القرآن مقارنة بما جاء في كلام العرب، ثم يأتي فيقسمه إلى قسمين:

الأول: إيجاز القصر، والمراد به « بنية الكلام على تقليل اللفظ، وتكثير المعنى من غير حذف»[30]، مستدلاً بأمثلة كثيرة من القرآن الكريم، على غرار حذف الجواب في بعض الآيات، كقوله تعالى:« وسيق الذين اتقوا بهم إلى الجنة »[31]، إذ يرى الرماني أن تقدير المحذوف في هذا الشاهد هو : إذا سيق هؤلاء إلى الجنة قيل لهم تنعموا بالجنة من غير تعب ولا نكد.

ويعلل الرماني دواعي هذا الحذف فيقول: «وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان»[32]، فهو أبلغ من الذكر لأنه يشد انتباه السامع، ويدفعه الى البحث عن المعنى المحذوف، فيسلك في ذلك طرق عديدة من التفكير والبحث والتقصي، وهو ما عبر عنه الرماني بالمذهب.

أما القسم الثاني فهو إيجاز القصر دون حذف: وهو ضرب أغمض من الحذف، وعليه فقد كان لزاماً على المتكلم أن يحسن معرفة مواضعه، فلا يبالغ فيه، ومن ذلك قوله:« ولكم في القصاص حياة»[33]، ويأتي الرماني بعد ذلك فيقف على فائدة الإيجاز في هذه الآية الكريمة، انطلاقاً من مقارنة يعقدها بينها وبين ما تقوله العرب في هذا الباب وهو" القتل أبقى للقتل"، فكتا العبارتين تحملان معنى واحد، لولا أننا نلمس في الآية فائدة أكبر، وهي« إبانة العدل لذكره القصاص، ومنها إبانة الغرض فيه لذكره للحياة، ومنا الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله تعالى»[34] ، وهو ما لا نجده في الشاهد الثاني، الذي اكتفى بتقديم المعنى خالياً من أي تضمين من شأنه أن يشد انتباه السامع، ويستدعي فكره، فيدفعه إلى البحث.

وعليه فإن للإيجاز فوائد لا يمكن تجاهلها، فهو مدعاة إلى تحسين الكلام وتهذيبه« لما يحسن به البيان، والإيجاز تنقية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن»[35]، فيكون الكلام نقياً لا يشوبه الحشو، ولا يصده عن مقاصده الابتذال، والأمر في حقيقة لا يقتصر على الإيجاز فقط، بل على كل الأساليب العدولية الأخرى على غرار التقديم والتأخير، وصور البيان من استعارة وكناية ومجاز، والتي دافع عنها الرماني على مدار كتابه، مؤكداً على دورها الفعال في إعطاء الكلام

أبعاداً تأثيرية أوسع، من خلال المسار الاستدلالي الذي يتبعه السامع للوصول إلى المعاني الثاوية في هذه الأساليب،التي تخلق حالة من الخرق المقصود، والتي ينجر عنها دعوة السامع إلى الكشف عن المعنى المراد بعد رحلة بحث ومجازفة، تستلزم دائماً«عملاً تأويلياً ينجزه المستقبل حين يملأ الفجوات ويتمم ما يراه ناقصاً، بما يجده مناسباً لمقتضى التركيب»[36]، انطلاقاً من معطيات سياقية دقيقة يجب مراعاتها عند إنتاج الخطاب وحين تأويله.

خاتمة:

إن البلاغة العربية باحتفائها بالكلام بناءً وتلقياً، لم تهمل الجانب الوظيفي لهذه البنية، من خلال عقدها العزم على كشف العلاقات التي تحكم هذه البنية، بنية البحث عن المقاصد و الأغراض، وهو ما تعكسه تلك المؤشرات التي يمكن الوقوف عليها في تنظيرات أعلامها ، ومن ذلك الباقلاني والرماني وقدامة بن جعفر والسكاكي وغيرهم، والذين أمنوا بأن البلاغة ليست زخرفاً لفظياً، بل هي بناء محكم التشييد، مدروس المعاني ، ينطلق من المتكلم الذي هو ملزم بانتقاء ألفاظه وتخير معانيه، ليصل إلى السامع وقد قطع شوطاً لا يستهان به للكشف عند معانيه الثاوية خلف ألفاظه، وهو يعيش حالة من الشوق و الدهشة، اللصيقة بعملية تأويل العديد من أساليبه، وهذه هي مقاصد البلاغة وغاياتها.

الهوامش:

[1] استعمل الكثير من الدارسين مثل "طه عبد الرحمن" مصطلح التداولية كمقابل للبراغماتية، و الذي رأى أنه المصطلح الأنسب، وهو ما سنعتمده في هذا المقال ، للاستزادة ينظر: طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع. المغرب. ط1. 1987. ص22.

[2] الطاهر لوصيف:(التداولية اللسانية). مجلة اللغة والأدب.ع17 .جامعة الجزائر.جانفي 2006. ص 06.

[3] بعلي حفناوي: التداولية (الراغماتية الجديدة، حطاب ما بعد الخطابة) .مجلة اللغة والادب. ع 17. ص53.

[4] .04. 03p. George Leech : principles of pragmatics نقلاً عن عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية– دار الكتاب الجديد المتحدة. لبنان. ط1. 2004. ص 22.

[5] عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب.ص 22.

[6] خاصة نظرية النحو التوليدي. للإستزادة ينظر ريم فرحان عودة المعايطة: براغماتية اللغة ودورها في تشكيل بنية الكلمة. دار اليازوردي العلمية للنشر والتوزيع. الأردن. د/ط. 2008. ص 05.

[7] فرنسواز أرمنيكو: المقاربة التداولية.تر/ سعيد علوش. مركز الإنماء القومي. الرباط. د/ط. 1986. ص 07.

[8] ينظر على آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة. مطبوعات دار الثقافة. الجزائر :د/ط.دت.ص 18.

[9]أبو يعقوب السكاكي:مفتاح العلوم.تح/نعيم زوزور.دار الكتب العالمية.بيروت.ط2. 1408ه/1987م.ص 365.

[10] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني.تح/ محمود محمد شاكر. مطبعة المدني / دار المدني. القاهرة/ جدة.ط03. 1413ه/ 1992م. ص 202.

[11] ابن الحاجب: شرح العد على مختصر المنتهى الأصولي.تح/فادي ضيف و طارق يحي. منشورات محمد يضرن.دار الكتب العلمية. بيروت.ط1. 2000. ص 253.

[12] الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول.دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.لبنان.د/ت.د/ط. ص 108.

[13] المرجع نفسه. ص ن.

[14] أحمد المتوكل: أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي.سلسلة بحوث ودراسات.ع05.كلية الآداب والعلوم بجامعة محمد الخامس.1993. ص 22.

[15] فليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفلمان. تر/ صابر حباشة.دار الحوار. سوريا. ط1. 2007..ص 165.

[16]عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير– مقاربة تداولية معرفية لليات التواصل والحجاج– إفريقيا الشرق. تونس. د/ط. 2006 . ص 47.

[17] المرجع نفسه. ص 123.

[18] المرجع نفسه. ص 208.

[19] حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. مشروع قراءة. منشورات الجامعة التونسية. د/ط. 1981. ص 166.

[20] ضياء الدين إبن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.تح/د. الحوافي.دار النهضة . القاهرة.د/ط. 1959. ص 110.

[21] حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب. ص508.

[22] قدامة بن جعفر: نقد الشعر.تح/ عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية. بيروت. د/ط.د/ت. ص 107.

[23] ينظر سمير أبو حمدان: الإبلاغية في البلاغة العربية. منشورات عويدات. لبنان. ط1. 1979. ص 159.

[24] شكري المبخوت: الإستدلال البلاغي. دار الكتاب الجديد المتحدة. لبنان.ط2. 2010. ص 69.

[25] أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن. ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن.تح/ محمد خلف ومحمد زغلول سلام. دار المعارف. مصر.ط3. د/ت. ص 75. 76.

[26] أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن.ص 85.

[27] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير. ص 133.

[28] المرجع نفسه.ص 47.

[29] أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن. ص 69. 70.

[30] محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن. مكتبة الكليات. القاهرة. ط1. 1978. ص 26.

[31] سورة المزمر: الآية 73.

[32] أبو الحسن علي بن عيسى الرماني : النكت إعجاز القرآن.ص 71.

[33] سورة البقرة: الآية 179.

[34] محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن. ص 27.

[35] أبو الحسن علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن الكريم. ص 71.

[36] عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني.دار المريخ للنشر. الرباط. د/ت. 1980. ص 159. 160.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إ
بن الأثير ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.تح/د. الحوافي.دار النهضة . القاهرة.د/ط. 1959.

2. إ
بن جعفر قدامة : نقد الشعر.تح/ عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية. بيروت. د/ط.د/ت.

3. إ
بن الحاجب: شرح العد على مختصر المنتهى الأصولي.تح/فادي ضيف و طارق يحي. منشورات محمد يضرن.دار الكتب العلمية. بيروت.ط1. 2000.

4. أ
رمنيكو فرانسواز: المقاربة التداولية.تر/ سعيد علوش. مركز الإنماء القومي. الرباط. د/ط. 1986.

5. أ
بو حمدان سمير: الإبلاغية في البلاغة العربية. منشورات عويدات. لبنان. ط1. 1979.

6. آ
يت أوشان علي: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة. مطبوعات دار الثقافة. الجزائر:د/ط.دت.

7. ب
لانشيه فليب: التداولية من أوستين إلى غوفلمان. تر/ صابر حباشة.دار الحوار. سوريا. ط1. 2007.

8. ح
فناوي بعلي: التداولية (الراغماتية الجديدة، حطاب ما بعد الخطابة) .مجلة اللغة والادب. ع 17. ص53.

9. ا
لجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز في علم المعاني.تح/ محمود محمد شاكر. مطبعة المدني / دار المدني. القاهرة/ جدة.ط03. 1413هـ/ 1992م.

10. عبد الرحمن طه: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع. المغرب. ط1. 1987.

11. عشير عبد السلام: عندما نتواصل نغير– مقاربة تداولية معرفية لليات التواصل والحجاج– إفريقيا الشرق. تونس. د/ط. 2006.

12. الرماني أبو الحسن علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن. ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن.تح/ محمد خلف ومحمد زغلول سلام. دار المعارف. مصر.ط3. د/ت.

13. السكاكي أبو يعقوب: مفتاح العلوم.تح/نعيم زوزور.دار الكتب العالمية. بيروت.ط2. 1408هـ/1987م.

14. الشهري عبد الهادي بن ظافر: استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية– دار الكتاب الجديد المتحدة. لبنان. ط1. 2004.

15. الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول.دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.لبنان.د/ت.د/ط.

16. صمود حمادي: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. مشروع قراءة. منشورات الجامعة التونسية. د/ط. 1981.

17. لاشين عبد الفتاح: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني.دار المريخ للنشر. الرباط.د/ط. 1980.

18. لوصيف الطاهر :(التداولية اللسانية). مجلة اللغة والأدب.ع17 .جامعة الجزائر.جانفي 2006.

19. المبخوت شكري: الاستدلال البلاغي. دار الكتاب الجديد المتحدة. لبنان.ط2. 2010.

20. المتوكل أحمد: أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي.سلسلة بحوث ودراسات.ع05.كلية الآداب والعلوم بجامعة محمد الخامس.1993.

21. المعايطة ريم فرحان عودة: براغماتية اللغة ودورها في تشكيل بنية الكلمة. دار اليازوردي العلمية للنشر والتوزيع. الأردن. د/ط. 2008.

22. شيخون محمود السيد: الإعجاز في نظم القرآن. مكتبة الكليات. القاهرة. ط1. 1978.